آفاق وسياقات
تشرين الأوّل ٢٠٢٤ / العدد ١ - ص. ٥٢-٦٩

النصّ المقدَّس مصدر قِيم إنسانويّة متغيّرة؟

مقاربة مسيحيّة

الخوري إدغار الهيبي

بروفسور في جامعة القدّيس يوسف في بيروت. حائز شهادة دكتوراه في اللاهوت الأخلاقيّ وأخلاقيّات علوم الحياة من الجامعة الكاثوليكيّة في باريس. وهو عضو في الرابطة العالميّة لعلماء اللاهوت لدراسة الأخلاق (ATEM). وعضو في الجمعيّة العالميّة لتنمية منهجيّات التقييم في العلوم التربويّة (ADMEE). مؤسّس ورئيس جمعيّة «جنين» لمرافقة الإنجاب المتعثّر.

خلاصة

يعالج البحث مسألة أخلاقيّة حول مصدر القيم الإنسانويّة وعلاقتها بالكتاب المقدّس. يهدف إلى إظهار أنّ الكتاب المقدّس حامل للقيم وليس مصدرها، وأنّ القيم متأصّلة في طبيعة الإنسان وليست مجرّد إسقاط تربوي. يقارب الوحي الإلهي كاشفًا لماهيّة الإنسان وقيَمَه الفطريّة وليس منتجًا لها، مؤكّدًا أنّ النزعة الإنسانيّة قد تضيء على قيم لم يتناولها النصّ المقدّس مباشرةً أو تناولها في سياق مختلف.

كلمات مفتاحيّة

القِيَم الأخلاقيّة - الكتاب المقدّس - النزعة الإنسانويّة - الروح القدس والإلهام - العقل المستقيم والضمير المستنير - الشريعة الطبيعيّة والشريعة الموحاة - النسبيّة والحريّة والحقيقة.

Résumé

Cette recherche aborde une question éthique distincte, à savoir la source des valeurs humaines et la mesure dans laquelle elles sont liées à la Bible. Elle vise à démontrer que la Bible est porteuse de valeurs et non leur source, et que les valeurs sont enracinées dans la nature humaine plutôt que d'être de simples projections éducatives. Elle aborde la révélation divine comme révélatrice de l'essence humaine et de ses valeurs intrinsèques plutôt que comme productrice de celles-ci, confirmant que l'humanisme peut éclairer des valeurs non traitées directement par le texte sacré ou abordées dans un contexte différent.

Mots-clés

Valeurs morales – Bible – humanisme – Saint-Esprit et inspiration – raison droite et conscience éclairée – loi naturelle et loi révélée – relativisme et liberté et vérité.

يشير العنوان الاستفهامي لهذه الورقة «هل يشكّل الكتاب المقدّس مصدرًا لقيم إنسانويّة متغيّرة؟» إلى إشكاليّة مركّبة لا بدّ من العمل على فكفكتها ودرسها وتحليلها وإنضاجها. وَتستدعي الإشكاليّة التي وُضعت تحت ناظرنا اليوم، استجماع المقاربة المسيحيّة بمجمل عناصرها الإيمانيّة والكتابيّة واللاهوتيّة والأنتربولوجيّة، من ناحية، وذلك، بغية معالجة مسألة أخلاقيّة بامتياز، وهي: **مصدر القيم الإنسانويّة ودرجة ارتباطها بالنص المقدّس.** مع العلم أنّ هذا النصّ المقدّس ما تمخّضت عنهُ بيئة واحدةٌ فقط، بل بيئات إيمانيّة ودينيّة واجتماعيّة وحضاريّة، فأنتجت معايير وكتبت نُظُمًا وأورثت شرائع. كما تضعنا الإشكاليّة المطروحة في حالة تأهّب دائم لتمحيصٍ مزدوج من ناحية أخرى. الأمر الذي يسمح لنا، أوّلًا، **بالتحقّق من القيم الجديدة أو المستجدّةً التي تعرضها علينا النزعة الإنسانيّة المعاصرة، وثانيًا، هو يسمح بمراجعة فهمنا واستيعابنا وتَبنّينا قيمًا أورثنا إيّاها الكتاب المقدّس، لطالما اعتبرناها إنسانيّة بامتياز.**

وَبغية معالجة موضوعنا، واحترامًا لإطار المداخلة وتخصّصيّتها من الزاوية الأخلاقيّة، أكتفي بتحديد أهدافٍ أربعة، أرنو إليها عبر ثلاثة أقسام.

الهدف الأوّل: إظهار طبيعة الكتاب المقدّس على أنّه حاملُ القيم ومَـخـزَنُـها ومِرآتُـها وليس مصدَرها.

الهدف الثاني: تُعدُّ القيم الإنسانويّة قيمًا مكتسبة ومتأصّلة في طبيعة الإنسان، ولا يجوز أن تُعَدُّ أنّها مجرّد إسقاط أو موروث تربوي أخلاقي. وَبالتالي، هي في أصلها، قيم مشتركة بين البشر كلّهم، بغضّ النظر عن الطريقة التي اكتشفتها فيها الجماعات الفكريّة والروحيّة أو عن كيفيّة تحديدها.

الهدف الثالث: يكشف الوحي الإلهي ماهيّة الإنسان وقيَمَه المتأصّلة في طبيعته وفي دعوته الأصيلة، فهو لا يستنبط القيم من العدم. وَبالتالي، لا يتعارض كلّ ما تعمل النزعة الإنسانيّة على بلورته وتنظيمه، بجوهره، مع الكنيسة التي ترى الكتاب المقدّس شاهدًا ثابتًا على ما كُشِفَ واختُبِرَ ونُقِلَ ودُوِّن عن الله وعن الإنسان، بضمانة الوحي والإلهام.

الهدف الرابع: لا تستطيع النزعة الإنسانيّة إنتاج قيم أخلاقيّة لم تكن موجودة. لكن من الممكن أن تسلّط الضوء، بشكل جديد، على قيم لم يعرضها النصّ المقدَّس بشكل مباشر، أو لم تُعرَض في سياق مختلف ومغاير.

أمّا الأقسام التي أعبُر معكم خلالها إلى الأهداف المذكورة أعلاه فهي:

القسم الأوّل: تحديد القيم الأخلاقيّة، إشكاليّة بحدّ ذاتها

القسم الثاني: العلاقة الجذريّة بين الدين وبين تحديد القيم الأخلاقيّة

القسم الثالث: دور العقل والإيمان في رصد القيم وتشكّلها، أي التكامل بين الشريعة الطبيعيّة والشريعة الموحاة.

القسم الأوّل: «تحديد القيم الأخلاقيّة»، إشكاليّة بحدّ ذاتها

لا شكّ في أنَّ مسألة القيم هي المسألة الأعمق التي تكشف عن الصراعات الأخلاقيّة المعاصرة المثيرة للاهتمام. ولقد ذكرنا أهميّة مسألة القيم علمًا أنّه يجدر بنا التذكير، منذ البداية، بأنَّ علم القيم (axiologie) هو نظريّة تنظيمية للقيم الأخلاقيّة، لا يستنفد احتمالات معاني الفلسفة الأخلاقيّة. فضلًا عن ذلك، من المعروفِ أنّه سبق وتعرّض لمعارضات جذريّة في مجال اللاهوت.

لا نودّ أن ننطلق من فكرة التأكيد على غياب هكذا معارضات، كما أنّنا لن نتساءل عن التناقضات الداخليّة البارزة في علم القيم. بل سنفترض، مع اللاهوتي السويسريديني مولر، أنّ «مفهوم القيم نفسه لا يتعارض مع مفهوم الحقيقة»[١]، وأنَّ الأخلاق اللاهوتيّة التي يستمدّها الفرد من التقاليد المسيحيّة يجوز أن تتماشى مع علم القيم بشكل مسبق. على العكس، نستغرب بشدّة تطبيق نظام قيم معيّن، على حساب تعدّد الجماعات القناعاتيّة مع التنوّع في التفسير والتأويل والترتيب والتنظيم القيمي الذي ينتج منها.

في هذا الإطار، من الممكن إيجاز الاصطفافات الأساسيّة المترتّبة عن نظريّة القيم كالآتي:

(١) تنقسم «الدعوة إلى أخلاقيّة عالميّة» بدورها إلى مجموعتين من الأنماط الرئيسة، وهي:

إمّا (١أ) المواقف المناهضة للنسبيّة المرتبطة بمفهوم الحقيقة المادّي،

أو (١ب) البحث عن قيم مشتركة[٢] يمكن صياغتها على شكل أخلاق عالميّة مثلاً (هانس كونغ)[٣].

---

(١) Müller Denis, « Transcendance et fragilité des valeurs. Pour une éthique universelle, pluraliste et démocratique », *Revue d'éthique et de théologie morale*, 2006/3 (N° 240), Cerf, p. 61.

(٢) مفهوم القيم في العلوم الاجتماعية عانى أيضًا من غياب الاتفاق، سواء على تعريف القيم، أو محتواها، أو هيكل العلاقات التي تربطها بعضها ببعض؛ كما عانى أيضًا من غياب الأساليب الموثوقة التي تسمح بقياس القيم. لتحقيق نظرية لتعويض هذا الفجوة، على الأقلّ جزئيًّا، قام شالوم شوارتز بدراسة بيانيّة على أكثر من سبعين دولة واستخدم أدوات قياس مختلفة. تعامل فيها مع القيم الأساسية التي يعترف بها الأفراد مجمل الثقافات. تميّز النظرية بين عشر قيم أساسية مختلفة ووصف لديناميكية التناقضات والتوافقات بينها. تحدد هذه الديناميكية هيكل العلاقات بين القيم، وهيكلًا مشتركًا لمجموعات تنتمي إلى ثقافات مختلفة، ممّا يؤدّي إلى الاعتقاد بوجود تنظيم عالمي للدوافع البشرية. يتميّز الأفراد، مثل الجماعات، بالأولويات التي يمنحونها لهذه القيم». راجع

(٣) Kung Hans, *Projet d'éthique planétaire, La paix mondiale par la paix entre les religions* (original 1990, Traduit de l'Allemand par Feisthauer Joseph), Seuil, Paris, 1991, 250.

(٢) تنفي النسبية الجذريّة، سواء أكانت بنائيّة القيم (constructivisme) أو نسبية القيم (relativisme)، وجود قيم موضوعيّة شاملة بمعزل عن السياقات المختلفة. وَنعتقد أن هذا الشقّ من التصنيف لم يؤدِّ إلى استنتاجات مقنعة، على الرغم من أنه ناتج من اهتمامات مشروعة بالحداثة. فالنسبيّة والذاتيّة (subjectivisme) تظلّان غير قادرتين على الارتقاء إلى مستوى المطلق أو مستوى الحقيقة، ما لم تنكرا ذاتيهما. بالإضافة إلى ذلك، نعتقد أن المواقف المناهضة للنسبيّة تعبّر عن خطوات ناقصة ومتسرّعة، إذا ما اكتفت بمواجهة النسبيّة بمطلقيّة الحقيقة (absolutisme). في رأينا، لا بدّ من سلوك طريق ثالث يحترم في الوقت نفسه تعدّد القيم والبحث عن الحقيقة. وهذا هو الحال في مقاربتنا اللاهوتيّة للقيم في الكتاب المقدّس.

يكتشف المراقب الدؤوب وراء جوانب التصنيف أو الاصطفاف مسألة قيميّة جذريّة مشتركة ألا وهي مسألة تحديد القيمة الأخلاقيّة بحدّ ذاتها. فما هي القيمة الأخلاقيّة؟ هل هي فعلًا موجودة؟ أم هي مجرّد مفهوم فكري يُعبّر عن واقع معيّن كالمشاعر والأحاسيس؟ هل تُعدُّ القيمة الأخلاقيّة حقيقةً كيانيّةً تنتمي إلى طبيعة الأشياء و/ أو الأشخاص؟ أم هي مركّب لغويّ يستند فقط إلى الاختبارات الشخصيّة، الذاتيّة والجماعيّة، الساعية إلى بناء أنظمة و/ أو مناهج ضامنة لهذه الاختبارات و/ أو الأفكار، وما تثمر من نتائج مفيدة وحسنة بحسب غايات من يريدها؟

من الواضح أنّ نظريّة القيم تترجّح بين أمرين اثنين: (١) الأوّل هو منظور تنظيمي (normatif) موضوعي[٤] من النوع التأسيسي والجوهري، وهو يرتكز على الدوافع السامية (transcendantales). أمّا الثاني، فهو (٢) سياق أكثر بساطة (minimaliste) وفردانيّة وذاتيّة[٥]، وهو يعتمد على الدوافع الذاتيّة (subjectives). والجدير بالذكر أنَّ نماذج التشكيل الذاتي والشخصاني للقيم تهيمن على السياق المذكور الذي لا يعترف بإمكانيّة تحويل هذه القيم إلى سماويّات ملزمة[٦].

بعيدًا عن ولوج التيارات المختلفة بغية مُقاربة المسألة التحديديّة للقيمة الأخلاقيّة، ألا وهي أخلاقيّات الفضيلة (éthique de la vertu)، وأدبيّات الواجب (morale déontologique)،

(٤) انطلاقًا من موضوعيّة القيمة، يتمّ التركيز على الدوافع والحوافز السماويّة، وعلى الشموليّة والمطلقيّة، وعلى الشريعة والغائيّة (من غاية).

(٥) انطلاقًا من ذاتيّة الفاعل (الشخص / الإنسان)، يتمّ التركيز على الدوافع والحوافز الشخصيّة والذاتيّة، وعلى النسبيّة والتعدّديّة وصولًا إلى العدميّة.

(٦) راجع Müller Denis, « Valeurs », Dictionnaire encyclopédique d’éthique chrétienne, Cerf, 2013

وأخلاقيّات النتيجة (éthique conséquentialiste)، سأعتنق مقاربة كيانيّة (ontologique) للإجابة عن السؤال أعلاه.

تَرى هذه المقاربة الكيانيّة أن القيمة متأصّلة في طبيعة الكائن وليست مجرّد إسقاط فكري أو لغوي أو مشاعري. ويشكّل ما يختبره و/ أو ما يرغبه الإنسان بطبيعة الحال، علاقة وجدانيّة كيانيّة. فهو لا يظهر من العدم. وَبالتالي، يمكننا أن نعرِّف القيمة على أنّها «وحدة كيانيّة» (entité) أصيلة في كيان أشمل أفردي كان أم جماعي. وهي بذلك تسبغ على هذا الكيان عناصر أساسيّة لطبيعته، كما تنهل من الكيان المذكور مقامًا ومرتبةً ودورًا. وتعدُّ «القيمة أخلاقيّةً عندما تكوّن أساسًا كافيًا لخيارٍ (أو لفعلٍ) بشريٍ دون حاجةِ اللجوء إلى أساس آخر»(٧).

إذًا، تدلّ القيمة الأخلاقيّة بنظرنا، أي من وجهة النظر الموضوعية، على ميزة من ما يستحقّ أن يكون مرغوبًا فيه. وَبالتالي، إن كانت الرغبة هي إحدى الدوافع الأساسيّة لتحقيق فعل ما، وإن كان الخير يرتكز على جعل رغباتنا (الذاتيّة) تتطابق مع الذي يستحقّ، موضوعيًّا، أن يكون مرغوبًا فيه، تفرض القيمة نفسها كضرورة لا بدّ منها لتحقيق الخير. بعبارات أخرى، إنّ القيمة هي الكيان الذي يعطي «معنى» لكلّ ما يرتبط به والذي لا يأخذ معناه إلّا من ذاته أو ممّا يشابهه (قيمة أخرى أو نظام قيم). فالإنسانيّة والكرامة والفرادة والحياة والحريّة والحقيقة والحبّ والجسد والصحّة والخير العام والعدالة والسلام، تُعَدُّ جميعها قيمًا للترقّي من خلال كلّ فعل إنساني حتّى يتوافق مَن يقوم بالفعل مع كيانه الإنساني الجوهري، وبالتالي مع عمق كرامته. على هذا الأساس، يمكننا التأكيد على ضرورة منظومة القيم من أجل التأسيس لكلّ النظم والشرائع الأخلاقيّة، فهي التي تعطي المعنى لهذه الأخيرة، كما أنّها تبرّر ضروراتها الإلزاميّة (المبادئ الفارضة والمبادئ الناهية(٨))، وليس العكس على الإطلاق.

وعلى الرغم من أنّ القيم تفرض نفسها كضرورة جذريّة، إلّا أنّها تعاني من التباسَين رئيسَين:

يتعلّق الالتباس الأوّل بأن يعترف الفاعل أكان شخصًا، أم مجموعةً، أم مجتمعًا، أم جماعةً، أم دينًا ... بالقيم: فهل نعترف جميعنا في كلّ الأحيان، بالحياة الإنسانيّة والحريّة

(٧) « X est une valeur morale si et seulement si X est reconnu par tous comme une raison d'agir qui ne nécessite à son tour aucune autre raison » : Simmenauer Benjamin, « Qu'est-ce qu'une valeur morale ? », *Espace éthique* – Poche, Éditions Erès, 2010, p. 131.

(٨) تُسمّى «فارضة» (prescriptive) كلّ شريعة تُصاغ بطريقة إيجابيّة ملزمة بمعنى فرض القيام بواجب، مثلاً، «ما يجب فعله». تُسمّى «مانعة» (proscriptive) كلّ شريعة تُصاغ بطريقة سلبيّة بمعنى الحظر، مثلًا «ما لا يجب فعله».

والحقيقة على أنّها قيم بكلّ ما للكلمة من معنى؟ أمّا الالتباس الثاني، فيرتبط بالنظام الذي تترابط وتتكامل وتترتّب فيه هذه القيم. هل تحظى قيم بأهميّة أكثر من قيم أخرى؟ من الذي يقرّر بهذا الشأن؟ وكيف نحدّد ترتيبها ونبرزه؟

يشكّل هذان الالتباسان صعوبة ذات طابع معرفيّ (épistémologique) وهي تواجه قيام النظام القيمي. من أجل حلّ هذه الصعوبة، علينا العودة إلى نظام مرجعي تأسيسي يلامس حدود الذاتيَّة (subjectivité) (الفاعل الذي يعترف بالقيم والحقائق ويبغي حمايتها والدفاع عنها)، من ناحية، وحدود الموضوعيّة (القيم المـُعتَرَف بها من الجميع وفي كلّ مكان)، من ناحية أخرى، ونشير إليه بعبارة «قناعات تأسيسيّة». وهذا ما يحتّم بنظرنا علاقة جذريّة بين الجماعات القناعاتيّة، ومنها الجماعات الدينيّة، ونظام القيم الأخلاقيّة.

القسم الثاني: العلاقة الجذريّة بين الدين وتحديد القيم الأخلاقيّة

عندما نتناول العلاقة بين الدين ونظام القيم الأخلاقيّة، نقصد منظومة متكاملة من المعتقدات الموحاة منها والملهمة، كالديانات الإبراهيميّة. كما نذكر المنظومات المبنيّة بوسائط العقل والمنطق، وما أنبتت من مسلّمات ومقاربات وتصوّرات للوجود والحياة والتاريخ والإنسان والكائنات، وما حدّدت من معايير ومقاييس، كي يبلغ كلُّ كائنٍ ملءَ دعوته. في هذا الإطار، تؤدّي القناعات الدينيّة، بشكل عام، والقناعات المسيحيّة، بشكل خاص، دورًا مزدوجًا في بناء نظام القيم الأخلاقيّة[٩]. الأوّل، ذو طابع شخصانيّ (personnaliste)، والثاني، ذو طابع معرفيّ (épistémologique).

(١) يشكّل الطابع الشخصانيّ كلّاً من السياقات الآتية: السياق الاجتماعي والثقافي والروحي الذي يتماهى فيها وبها الشخص الفاعل. وَيتعلّق الأمر في هذه الحالة بانتماء الفرد إلى جماعة متّحدة بمجموعة رؤى وقناعات متجانسة بجوهرها، لا سيّما بالنسبة إلى تحديد الحقّ والخير. وبإعلان هذا الانتماء اليقيني والقناعاتي، يعترف الفاعل بنظام قيميّ يقبل فيه، بحريّة ووعي، أن ينموَ ويتأنسن. وَيقود هذا التجانس المتعمّق في تعريف الخير الشخص،

(٩) من أجل التعمّق في بنية التمييز الأخلاقي وارتباطه بنظام القيم الأخلاقيّة من وجهة نظرنا، راجع: إدغار الهيبي، «التربية الأخلاقيّة وقبول الآخر، مقاربة مسيحيّة»، **أبحاث ودراسات تربويّة**، مجلّة محكّمة متخصّصة في الفكر التربويّ الإسلامي والمقارن، العدد الخامس، السنة الثالثة، صيف ٢٠١٧ م، ١٤٣٨ هـ، ص ١١٥-١٥٣.

قبل كلّ شيء، إلى الاعتراف بمجموعة قيم، وإلى مقاربة ذاته، وذلك، انطلاقًا من انتمائه لهذه القيم وإخلاصه لها من الناحيتين النظريّة والعمليّة، كما الترويج لها والدفاع عنها.

يمكننا، في هذا المستوى من المعطيات، اعتبار أَنّ منظومة القناعات الأساس هي مجموعة من المسلّمات المنبثقة من تصوّرٍ ما للوجود، وهي مبنيّة على إدراك شامل للكون والحياة، وعلى رزمة اختبارات وجدانيّة كيانيّة، يقوم بها الإنسان، بشخصه، من ناحية، وبتفاعله الجماعي، من ناحية أخرى. وتتكوّن هذه القناعات ويتمّ نقلها عبر مسارات ذهنيّة وروحيّة ولغويّة وبيئيّة معقّدة دأبت الفلسفة والعلوم الإنسانيّة والدينيّة واللاهوتيّة المتنوّعة على فكفكة عناصرها ودراسة ترابطها عبر التاريخ البشري. وهي تُعَدُّ بعيدة من أن تكون قد أنجزت كلّ أطوار المعرفة بخصوصها حتّى يومنا هذا. ولا يسعنا هنا عرض مناهج هذه الدراسات ولا نتائجها، إنّما ما يهمّنا هو الاستنتاج الآتي: تشكّل هذه القناعات، بمعتقداتها وتحديداتها ومنطلقاتها ومسلّماتها كلّها، وما ينتج منها من عقائدَ إيمانيّة وقيم أخلاقيّة وشرائعَ تنظيميّة ومسلكيّة، تقليدًا عامًّا يحمل في هيكله مخزونًا هائلًا وشاملًا يتذوّق فيه كلُّ مولودٍ طعمَ الإدراك المتوارَث، ويَعبُرُ بواسطته، في مراحل نموّ لا تنضب، عن ولوج سرّ المعنى وسرّ الحقّ. كما يمكننا التذكير هنا، أنّ عامودَي هذا التقليد هما العقل والإيمان، وأنّ تراتبيّة انبثاق هذا التقليد تبدأ بالعيش والاختبار. يلي التقليد التشكيل الذهني واللغوي، وبالتالي التواصل والتناقل الشفوي الذي يكلّله النصّ بمحتواه المعنوي والمادي، وهو يُعَدُّ مقدّسًا. وَعلمًا أنّ النصّ المقدّس هو بعيد من أن يغلق دوائر المعنى والحقيقة، إلّا أنّه يفتحها في حركة لولبيّة لامتناهية أمام كلّ قارئ في كتاب الحياة والوجود. ولاحقًا، سنعود إلى مسألة الوحي والإلهام في إشكاليّة النصّ المقدّس بحسب اللاهوت المسيحي. لكن قبل ذلك، علينا ختام هذا القسم بالعودة إلى العلاقة بين النصّ، بحسب تقليدٍ مقدّسٍ معيّن، وبحسب منظومة القيم الأخلاقيّة في هذا التقليد.

(٢) من الواضح أنّنا إذا اعتبرنا أنّ القيمة هي الكيان الذي يعطي معنى لكلّ ما يرتبط به، وأنّه لا يأخذ معناه إلّا من ذاته، وإذا اعتبرنا أنّ التقليد هو نتيجة تراكم قناعاتي وإدراكي للكون في خبرة الإنسانيّة، وإذا اعترفنا أنّ النصّ المقدّس هو حامل حيّ لهذا التقليد، يصبح التلازم بين مضمون النصّ المقدّس حول القيم الإنسانيّة أقلّه، وحقيقة القيمة **السابقة للنص بكيانها** تلازمًا جذريًّا. وبالتالي، إنّ تحديد القيم الأخلاقيّة في النصّ المقدّس ينبثق من الحركة الهيرمينوطيقيّة التي تبدأ قبل النصّ، لكنها لا تُستنفد به ولا تنتهي معه. كما يحمل تعريف

القيم الأخلاقيّة، بشكله وبمضامينه، في النصّ المقدّس بصمة بيئة التقليد الذي أنتجه، كما يحمل أزمنة النصّ وأمكنته وإشكاليّات مجتمعه ومحيطه. ويحملنا ما سبق إلى تشكيل ثلاثة مبادئ أساسيّة لمقاربة القيم الأخلاقيّة في الكتاب المقدّس:

أ) لا يشكّل الكتاب المقدّس مصدرًا جوهريًّا للقيم الأخلاقيّة، إنّما مخزنًا لمفاتيح وأدوات نفيسة لرصدها وسبر غورها.

ب) لا تحمل القيم الأخلاقيّة في النصوص المقدّسة المصطلحات نفسها ولا المعنى نفسه، بل تتّصف بتعدّد المصطلحات والمعاني[١٠].

ج) لا تحتلّ القيم الأخلاقيّة في النصّ المقدّس الترتيب نفسه ولا درجة الإلزام نفسها، ولا ينبثق عنها المبادئ نفسها ولا القواعد نفسها باختلاف الكتب المقدّسة، بل يخضع هذا الترتيب إلى عوامل سياقيّة تعدّل في جذريّتها، وتغيّر في ترتيبها، وتنوّع هرميّتها، وتؤثّر على ترابطها، وتُدَوزِن تماسكها[١١].

يقودنا المبدأ الأخير المطروح أعلاه إلى التعريج على الدور الثاني الذي تؤدّيه المنظومة القناعاتيّة. وبالتالي، نتحدّث عن دور بيئة النصّ الإيمانيّة في ترتيب سلّم القيم الأخلاقيّة. ومن المعلوم أنّ معرفة مجموعة محدّدة من القيم لا تكفي لتحقيق التمييز الأخلاقي خصوصًا حين يطرأ نزاعٌ بين القيم نفسِها. وهذا ما يحدث في الحالات الملتبسة في سياق معيّن، أكان على المستوى الشخصي، أو المؤسّساتي، أو الاجتماعي، أو الروحي. وفي هذا السياق النزاعي، تتدخّل القناعات في دورها الثاني، ذات الطابع المعرفيّ الصرف، لتؤسّس لأحد أهمّ المعايير التي تربط القيم في ما بينها وتنظّمها. في الواقع، عندما تبرز حالة نزاعيّة، تكمن المشكلة الحقيقيّة وراءها في القدرة على اختيار القيم الواجب الالتزام بها أو المفروض إنقاذها. وذلك، حين لا يستطيع الإنسان أن يحترم عمليًّا[١٢]، القيم المعنيّة جميعها خلال

(١٠) على سبيل المثال، بحسب concordance de la TOB، ترد كلمة «حقيقة» ١٩٨ مرّة في الكتاب المقدّس، لكنّها تعكس ٨ مصطلحات من ثلاث لغات مختلفة، العبريّة والآراميّة واليونانيّة. كما ترد كلمة «حريّة» ٢٥ مرّة، محاولة التعبير عن ٩ مصطلحات باللغتين العبريّة واليونانيّة. أمّا كلمة «حياة» فترد ٧٢٠ مرّة، ترجمةً لـ ٣٨ مصطلحًا، تتوزّع على لغات ثلاث، العبريّة والآراميّة واليونانيّة.

(١١) لا مجال هنا لتوسيع مقاربة القيم هذه. إنّما القيم، في رأينا، ثابتة بذاتها، متحرّكة بمواقعها، تفاعليّة بترابطها، تُقاسُ في نظام رباعي الأبعاد: التاريخ الشخصي (الاختبار الذاتي)، والسياق الاجتماعي (المعايير السائدة)، والنضوج الإنساني (الحضاري)، والواقع الدراماتيكي (الحالة المعنيّة).

(١٢) تُطرح المشكلة بحدّة على المستوى العمليّ. فعلى المستوى النظري، القيمة المهدّدة، والتي سوف يصعب احترامها وصونها بالفعل، إنّما تعترف بها المنظومة والفاعل على السواء.

الاطّلاع على سياق معيّن بسبب محدوديّته. بمعنى آخر، إنّ العبور من «الاعتراف نظريًّا بهاتين القيمتين» إلى «تحقيقٍ واقعي لهذه القيمة أو تلك»، هو الذي يؤجّج صراع القيم ويعرّض بنية التمييز الأخلاقي لصعوبة يستحيل تجنّبها.

هذا العبور من إمكانيّة معيّة القيم (و) إلى ضرورة الاختيار بينها (أو) يُرغم المنظومة القيميّة على العودة إلى نظام القناعات المؤسِّس لتسلسل القيم تراتبيًّا من أجل إنقاذ الأولويّات. ومع ذلك، فعلى كلّ هرميّة قيميّة أن تأخذ بعين الاعتبار الأطر المختلفة التي تندلع فيها النزاعات. لهذا السبب، لا تستطيع أيّة هرميّة الاكتفاء، بشكل مطلق، بسلّم أحاديّ الأبعاد (تنازليّ) بل يجب عليها السهر لإعداد منظومة مبنيّة على تلازم ضمنيّ بين سلالم قيميّة متعدّدة الأبعاد. هذه السلالم تأخذ على عاتقها التطوّرات المتزامنة والمتعاقبة لتعريفات الخير وتأثيراتها في الأفعال المطروحة. على هذا النحو تؤسّس القناعات خيار الفاعل للقيم، أكان شخصًا أم جماعة، في الحالات النزاعية.

إذًا، هذه التراتبيّة–الطبقيّة في نظام القيم الأخلاقيّة تنبثق عن تصوّر الإنسان لحقيقة الكون والوجود. وهي تخضع بالتالي لمنظومة القناعات المتأتّية عنه ضمن التقليد المعني، أكان هذا التقليد دينيًّا، أم علمانيًّا (على غرار النزعة الإنسانويّة التي تخصّ مقارنتنا في هذه الدراسة)، أم تيارًا إيديولوجيًّا. كما أنّ هذه التراتبيّة تخضع جليًّا للسياق التاريخي والحضاري لتشكيلها وتدوينها في النصّ المقدّس، ممّا يفتح الباب أيضًا على تنوّع هرميّتها، كما ذكرنا أعلاه، إبّان التفسير والتأويل والتأوين. الأمر الذي يعلّل ضرورة تربيض بناء القيم عبر مبادئ عامّة وشاملة، وتوتيده في قواعد عمليّة سياقيّة، ممّا يسمح للفاعل الأخلاقي بتجسيده بمنهج حياة إنسانيّة مسؤول وفاضل.

القسم الثالث: دور العقل والإيمان في رصد القيم وتشكّلها على ضوء إشكاليّة الوحي والإلهام في الكتاب المقدّس

لسنا بوارد معالجة إشكاليّة الوحي والإلهام في مقاربة الكتاب المقدّس، بعهديه القديم والجديد، بحسب اللاهوت المسيحي. فقد تخطّى عدد الباحثين ونتاجهم المجلّدات التي آوت فرضيّات متجانسة، وأخرى مناقضة، مال بعضها عبر التاريخ، إلى تقديس الحرف، وتطرّف بعض آخر حتّى تذويب الوحي. لكنّ، اتفقت الأكثريّة على ضرورة تغليب معادلة التضافر بين كلمة الله ولغة الإنسان في أصل النصّ المقدّس، كما في تدوينه ونقله وعمليّة

قبوله (Réception). ولا تعدّ عمليّة تحديد «قانون الكتب المقدّسة»(١٣) عبر القرون المسيحيّة الأولى إلّا تأكيدًا على ماهيّة البعد البشري في تثبيت النصوص التي تُعَدُّ مُلهَمَةً من الروح القدس وحافظةً وديعةَ الإيمان والوحي الإلهي.

كذلك، نعلم أنّ ذكر «المعنى الأخلاقي» (الأنتربولوجي بحسب أوريجانوس) إلى جانب المعاني الأخرى كـ«المعنى الروحي» (الكريستولوجي بحسب أوريجانوس أيضًا) و«المعنى التاريخي»(١٤) هو أمر ثابت عبر العلوم الكتابيّة، وإن بطريقة متفاوتة.

فإذا كان النصّ المقدّس هو كتاب مخصّص لبنيان المؤمنين، هؤلاء «رجال الله، المهيأون والمعدّون لكلّ عمل صالح، الذين يُفترض أنّ يخاطبهم كلُّ كتاب ملهم، أي مفيد للتعليم، وللدفاع، وللإصلاح، وللتنشئة على البر»(١٥)، وإذا كان المعنى الأخلاقي ثابتًا في طيّات هذا النصّ وتعاليمه، فلا بدّ لنا من التوقّف عند العلاقة التي تربط بين العقل والإيمان، وبين الـمُـعطى الطبيعي والـمُـعطى الفائق للطبيعة (الوحي)، وعند كشف القيم الأخلاقيّة الواردة في الكتاب المقدّس وفهمها.

لقد سبق وتحدّث المجمع الفاتيكاني الثاني بإيجاز عن العلاقة بين الكتاب المقدس واللاهوت الأخلاقي. ويرى المجمع أنّ الكتاب المقدس هو «روحُ علم اللاهوت كلّه»(١٦). كما يؤكّد أنّ على الكنيسة أن «تبذل عناية خاصة بغية تطوير اللاهوت الأخلاقي، بحيث يؤدّي عرضُه العلمي، المشبع بتعاليم الكتاب المقدّس، إلى توضيح سموّ دعوة المؤمنين في المسيح والتزامهم بحمل ثمارٍ في المحبة من أجل حياة العالم»(١٧).

ومن اللافت أن ترى الكنيسة أنّ تطوير اللاهوت الأخلاقي يستند إلى مبدأين متكاملين، يحاكي الأوّل منهما مسؤوليّة العقل وأهمّيّة توظيفه البحثي والنقدي والمنهجي. في حين

---

(١٣) يقدّم لنا سيسبووي قراءة تاريخيّة–لاهوتيّة حول مسار «قانون الكتب المقدّسة» ومعضلة الإلهام والوحي المحيطة به. راجع:

Sesboue Bernard, « La canonisation des Écritures et la reconnaissance de leur inspiration. Une approche historico-théologique », *Recherches de Science Religieuse*, 2004/1, (Tome 92), Éditions Centre Sèvres, p. 13 – 44.

(١٤) Blanchard Yves-Marie, « « Toute Écriture est inspirée » (2 TM 3,16). Les problématiques de la canonisation et de l'inspiration, avec leurs enjeux respectifs », *Recherches de Science Religieuse,* 2005/4, (Tome 93), Éditions Centre Sèvres, p. 497 – 515.

(١٥) *Idem.*, p. 515.

(١٦) **المجمع الفاتيكاني الثاني**، «دستور عقائدي في الوحي الإلهي»، ع. ٢٤؛ «قرار في التنشئة الكهنوتيّة»، ع. ١٠.

(١٧) **المجمع الفاتيكاني الثاني**، «قرار في التنشئة الكهنوتيّة»، ع. ١٦.

يعتمد المبدأ الثاني، على الغِذاء المستمر والمعمّق من تعاليم الكتاب المقدّس. أمّا الغاية من ذلك كلّه، فلا تكمن في العلم ولا في الكتاب المقدّس، إنّما في حمل ثمار محبّة من أجل حياة العالم. ويدور كلّ ذلك في فلك سموّ دعوة المؤمنين في المسيح. وإذا ما اعتبرنا أنّ المؤمن في المسيح هو إنسان يسعى إلى تحقيق دعوته الإنسانيّة، وإذا ما اعتبرنا أن السموّ هو كلّ ما يحدّد ماهيّة القيم الأخلاقيّة بطبيعتها، نجد أنفسنا أمام انسجام مبدئي مميّز بين القيم الإنجيليّة، من ناحية، والقيم الإنسانويّة، من ناحية أخرى. يقودنا هذا الاستنتاج إلى مجموعة أسئلة دقيقة تمهّد لنا معالجتها لتأكيد هذا الاستنتاج المبدئي.

(١) على ماذا تعتمد الكنيسة، الكاثوليكيّة أقلّه (المجمع الفاتيكاني الثاني)، كي توفّق بين نتاج العقل ونتاج الإيمان، في مسيرة البحث عن بنيان اللاهوت الأخلاقي؟ وبما يخصّنا هنا، في مسيرة تبيان القيم الأخلاقيّة وسبر مصادرها؟

يجوز أن نعتبر الإجابة عن السؤال الأوّل بسيطة جدًّا، لكنّها جوهريّة. لاهوت الخلق هو أساس هذا التوفيق والتكامل بين العقل والإيمان. أي إنّ الإيمان بأن الله هو خالق الكون، ما يُرى وما لا يُرى، يؤسّس لعقد تحالف طبيعي بينه وبين العقل في مسارات الإنسان لاستكشاف حقيقة الكون والكائنات، ورصد غاية كلّ منها، واختبار قيمتها وتحديدها، وتبويبها، وربطها، وتصريفها. هذا الإنسان الذي خلق الله كلَّ شيء حسن من أجله، وأتاهُ بها كي يسمّيَها (تك ٢، ١٩). فلا يؤول ذلك كلُّه إلى معرفة الإنسان لله فحسب، بل إلى معرفة الإنسان لذاته بملئها. فإنّ الإيمان والعقل، كما استهلّ القديس البابا يوحنا بولس الثاني رسالته حولهما، «هما بمثابة الجناحين اللذين يمكّنان الروح البشريّة من الارتقاء إلى تأمّل الحقيقة. فالله هو الذي وضع في قلب الإنسان الرغبة في معرفة الحقيقة ومعرفته هو ذاته، في النهاية، حتّى إذا ما عرفه وأحبّه تمكّن من الوصول إلى الحقيقة الكاملة في شأن ذاته»(١٨).

وينتج من هذا الـمُنطَلَق الجوهري نظام شامل يجمع بين دور العقل ودور الإيمان في بنيان اللاهوت عمومًا، وفي اللاهوت الأخلاقي خصوصًا. وقد سبق أن عبّرت الكنيسة عن هذا النظام منذ بداية اللاهوت المدرسي، وعلى رأسه ملفان الكنيسة، القديس توما الأكويني، من خلال مثلّث أفهومي متماسك: الشريعة الأزليّة والشريعة الطبيعيّة (ومركزها العقل) والشريعة الفائقة الطبيعة (أي الموحاة، ومركزها الإيمان). في هذا الإطار يرى اللاهوت الأخلاقي المسيحي أن الشريعة الأزليّة، هي الله بحركيّة خلقه للكون (ad extra)، وهي، بهذا المعنى،

(١٨) قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، **رسالة جامعة في الإيمان والعقل**، روما، ١٩٩٨.

«الحكمة الإلهيّة التي توجّه كلّ الأفعال والحركات في الكون»[١٩]. هذه الشريعة الأزليّة هي مُشارَكَة من قبل ذاتها للبشريّة من خلال الشريعة الطبيعيّة والشريعة الفائقة الطبيعة.

بالتالي، تُعدّ الشريعة الأزليّة، مصدر كلّ حق وكلّ خير وكلّ جمال وبرّ، وهي تمنح الإنسان نعمة أن يشاركها معرفة الحق والخير والبرّ، أي إنّها تمكّنه من معرفة القيم الطبيعيّة (الكيانيّة)، عبر الشريعة الطبيعيّة[٢٠]. فالقيم المذكورة تتأتى من كفاءات العقل البشري، من ناحية، ومن الشريعة الموحاة المدوّنة في الكتب المقدّسة، والمتجذّرة في الوحي الإلهي الذي اكتمل بشخص يسوع المسيح، من ناحية أخرى.

في إطار آخر، ضمن قراءة حديثة للشريعة الطبيعيّة تطرح تساؤلات عن قيم أخلاقيّة موضوعيّة قادرة على توحيد البشر، وكيفيّة رصدها وتحديدها وتمييزها، تطبيقها في حياة الأفراد والمجتمعات، ذكّرت اللجنة اللاهوتيّة العالميّة أنّ الشريعة الطبيعيّة تؤكّد، في جوهرها: «أنّ الأشخاص والجماعات البشريّة قادرة، بناءً على ضوء العقل، على تمييز التوجّهات الأساسيّة للسلوك الأخلاقي المتماثل مع طبيعة الإنسان بذاتها، وعلى التعبير عنها بشكلٍ مِعياريٍّ وعلى نحو مبادئ (أو وصايا).تهدف هذه المبادئ الأساسيّة، وهي بطبيعتها موضوعيّة وشاملة، إلى تأسيس جميع المقاييس الأخلاقيّة وإلهامها، فتحكم هذه الأخيرة بدورها حياة البشر والمجتمعات»[٢١].

(١٩) Pini Joseph-Thomas, « La présentation de la loi divine chez Saint Thomas d'Aquin entre la Somme contre les Gentils et la Somme de théologie », Référence numérique : *(1) Loi divine chez Saint Thomas d'Aquin entre Summa theologiae et Summa contra gentiles | Pini Joseph-Thomas - Academia. edu,* visitée le 17.02.2024, p. 6.

(٢٠) الشريعة الطبيعيّة هي «مشاركة الشريعة الأزليّة في الكائن العاقل»، حيث يكون هذا الأخير «خاضعًا للعناية الإلهية بطريقة أكثر تميّزًا عبر مشاركته الذاتيّة في هذه العناية من خلال توفير العناية لنفسه وللآخرين».
Idem. : « Puis il [Thomas D'Aquin] aborde la loi naturelle. Elle est « participation de la loi éternelle dans la créature raisonnable », celle-ci étant « soumise à la providence divine d'une manière plus excellente par le fait qu'elle participe elle-même de cette providence en pourvoyant à soi-même et aux autres », et dans la mesure où « (…) tous les êtres (…) soumis à la providence divine sont réglés par la loi éternelle [et] participent (…) de la loi éternelle par le fait qu'en recevant l'impression de cette loi en eux-mêmes, ils possèdent des inclinations qui les poussent aux actes et fins qui leur sont propres » (a. 2 c.). Comme ensemble formé d'abord des principes premiers de l'action humaine dans l'ordre de la raison pratique, elle comprend « tout ce vers quoi l'homme est incliné par nature » en tant qu'être raisonnable », avec des renvois à la Somme théologique : a. 2, développé en six articles dans la Q. 94 / a. 2 c. / Q. 94 a. 4 c.

(٢١) اللجنة اللاهوتيّة العالميّة، بحثًا عن أخلاقيّات عالميّة. نظرة جديدة إلى الشريعة الطبيعيّة، باللغة الفرنسيّة:
Commission théologique internationale, *À la recherche d'une éthique universelle. Nouveau regard sur la loi naturelle*, Cerf, Paris, 2009, N° 9.

انطلاقًا ممّا سبق وعُرِض في القسم الأوّل حول تحديد القيم الأخلاقيّة، واستنادًا إلى ما فصّلناه في القسم الثاني بشأن العلاقة الجذريّة بين الدين وتحديد هذه القيم، وبناءً على النقاط الآنف ذكرها في هذا القسم الثالث حول دور العقل والإيمان في رصد القيم وتشكّلها على ضوء إشكاليّة الوحي والإلهام في الكتاب المقدّس، نستطيع هنا تقديم إجابة شبه نهائية عن الإشكاليّة التي نعالجها في مداخلتنا. وتصاغ الإجابة على النحو الآتي: إذا كانت الشريعة الطبيعيّة قادرة، انطلاقًا من حركيّة العقل، على الولوج إلى حركيّة الحكمة الإلهيّة (الشريعة الأزليّة)، والتمييز بالشراكة معها بين الخير والشر، وبناء منظومة المعايير القيميّة والمبادئيّة التي تحكم حياة الإنسان، فالإنسان قادر إذًا على اكتشاف **القيم الإنسانيّة** وتحديدها بدون حاجة **إلى الشريعة الفائقة للطبيعة**. وهذا ما تحاول **النزعة الإنسانويّة** القيام به. بالتالي، **إنّ الكتاب المقدّس**، بصفته تدوينًا ملهَمًا للشريعة الموحاة لا يعدُّ **مصدرًا للقيم الإنسانيّة** بل حاملها ومخزنها ومرآتها. كما أنّ عرضه لهذه القيم هو عرض بطبيعته سياقيّ أي **متغيّر**، ليس بما يخصّ طبيعة القيمة وجوهرها، بل بما يخصّ تحديدها وموقعها في بناء أخلاقي شامل.

(٢) لا يمكن لهذه الإجابة أن تمحو إشكاليّتنا، بل هي تفتح أمامنا آفاقًا جديدة تتمثّل في السؤال الآتي:

لطالما استطاع الإنسان، عبر الشريعة الطبيعيّة، أن يعرف القيم الأخلاقيّة ويرصد المبادئ الأساسيّة واللازمة لبناء النظام الأخلاقي المناسب لخير الإنسان والعالم، ما الحاجة بعدُ للعودة إلى الكتاب المقدس؟ ولماذا على الكتاب المقدس أن يكون روحًا للاهوت الأخلاقي؟ أليس إنجيل الخلاص مكتوبًا بوحي الروح في قلوب المؤمنين (إرميا ٣١، ٣٣)[٢٢]؟ ألم يطبع الخالق المعايير الأخلاقية في وجدان الإنسان كما تؤكّد الرسالة إلى أهل روما (رو ٢، ١٥)؟

(٢٢) في ما يخصّ العلاقة بين الكتاب المقدّس والإنجيل المكتوب في القلوب، أعلن إرميا العهد الجديد بهذه الكلمات: «سأضع شريعتي في أعماقهم وسأكتبها على قلوبهم» (إرميا ٣١، ٣٣). كما أعلن حزقيال: «سأعطيكم قلبًا جديدًا، وسأضع فيكم روحًا جديدة، وسأزيل من جسدكم قلب الحجر، وسأعطيكم قلبًا من اللحم. سأضع روحي في داخلكم وسأجعلكم تسلكون وفقًا لشرائعي» (حزقيال ٣٦، ٢٦-٢٧). وفي رسالته إلى أهل روما، يجمع الرسول بولس بين هاتين الصورتين من الأنبياء ويؤكد أنّ الجديد الكبير في العهد الجديد، فيما يتعلق بالأخلاق، هو وجود «ناموس روح الحياة بيسوع المسيح» داخل قلب المسيحي، وهو مبدأ حكم جديد يمكّنه من العمل «وفقًا للروح وليس وفقًا للجسد» (روما ٨، ٢-٤). وفي الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي، حيث قدّم بولس مقاربته الأخلاقيّة للمرّة الأولى، عبَّر عن النبوءة الموجودة في كتاب إرميا بالقول: «فيما يتعلق بالمحبة الأخوية، فلا حاجة لكم أن أكتب إليكم عنها، لأنكم تعلمتم بأنفسكم من الله أن تحبوا بعضكم بعضًا، وأنتم تفعلون ذلك لجميع الأخوة...» (١ تسالونيكي ٤، ٩-١٠). وفي رسالته الأولى، أشار يوحنا أيضًا إلى وعد إرميا: «وأنتم، فالمسحة التي تلقيتموها منه ثابتة فيكم، ولا

إذا كان إرميا وحزقيال، كما بولس ويوحنا في إطار العهد الجديد، قد أكّدوا أنّ المؤمنين لن يكونوا بحاجة إلى التعلُّم على يد الآخرين، لأنّهم قد تلقّوا الروح القدس كمعلّم داخلي، فلماذا اللجوء إلى الكتاب مرة أخرى؟ أوَليس الناموس الداخلي كافيًا؟ وهل يمكن للكتب المقدّسة أن تقدّم لنا رسالة أخلاقيّة مختلفة عن تلك التي يوجّهها لنا الروح؟ ألا يشكّل اللجوء إلى الشريعة الموحاة (الكتاب المقدس) للبحث عن معايير أخلاقيّة إضعافًا، لا بل تناقضًا، للاعتراف بمشاركة الشريعة الطبيعيّة للشريعة الأزليّة؟[٢٣]

في الحقيقة، لقد لاحظ الإنجيليّون، على الرغم من أنّهم على دراية بنبوءات إرميا وحزقيال الأخلاقيّة، تكاملًا بين الإنجيل المكتوب في القلوب، والذي قد يتعرّض للتشويش بسبب ضعف الإنسان، وبين الكتب المقدّسة التي تذكّر المضمون بدقّة لامتناهية. فبما أنّ الكتابة هي بحدّ ذاتها حرف فقط - بمعنى أنّها تنقل رسالة الخلاص بدون أن تعطي القوّة لتنفيذها - يمنح الإنجيل المكتوب في القلوب القوّة للمؤمنين كي يأتوا بثمار البرّ. ذلك لأنّ نفسه الروح القدس، الذي يُذكّر «بكلّ ما قاله المسيح» من الداخل (يوحنا ١٤، ٢٦)، قد ذكّره أيضًا من الخارج بإلهام الكتّاب المقدّسين الذين نقلوا «كلَّ ما أمر به المسيح» (متى ٢٨، ٨)، إذًا، تُعَدُّ شهادة الكتب المقدّسة شهادة للروح القدس أيضًا (عبرانيين ١٠، ١٥). لذا، عندما يلجأ المسيحي إلى الرسالة الأخلاقيّة التي تمّ تثبيتها في الكتب المقدّسة تحت إلهام الروح القدس، فإنّ لديه فرص وفاءٍ أكبر لصوت الروح نفسه الذي يتحدّث إليه في قلبه.

نرى هنا، وبطريقة واضحة، كيف أنّ العقل المستقيم والضمير النيّر هما موقعان لاهوتيّان مميّزان يسمحان لنا بمعرفة ما يتناغم مع مشيئة الله. فوِفْقَ القدّيس توما الأكويني، لا يقدّم لنا العهد الجديد أوامرَ أخلاقيّة أخرى، إلّا تلك التي يمكن للإنسان أن يجدها عادة من خلال تأمّله أو حكمه الأخلاقي الفطري. فإله الوحي هو نفسه إله الخلق، والخلق الجديد لا يُدمّر الخلق الأوّل ولكن يشير إليه.

حاجة بكم إلى أن يعلّمكم أحد، بل كما تُعلّمكم هذه المسحة عينها عن كلّ شيء، وهي حقّ وليست كذبًا. كما علّمتكم تثبتون فيه» (١ يوحنا ٢، ٢٧).

(٢٣) نستند في تفصيل جوابنا في ما يلي على اللاهوتي إدوار هامل الذي عالج إشكاليّة العودة إلى الكتاب المقدّس بالرغم من صوابيّة الشريعة الطبيعيّة في عدد من كتاباته:

Hamel Edouard, « L'Écriture, âme de la théologie morale ? », *Gregorianum*, 1973, Vol. 54, N°. 3 (1973), p. 417-445 ; « La théologie morale entre l'Écriture et la raison », *Gregorianum*, Vol. 56, N°. 2 (1975), p. 273-319.

(٣) مع ذلك، يبقى السؤال: هل العودة إلى الكتاب المقدّس في التعرّف إلى هيكل القيم الأخلاقيّة هو من باب الترف؟ أوَلا يستطيع المجتمع البشري، والتيّارات الإنسانويّة المتعدّدة التي تشدّ نسيجه، أن يكتفي بإمكانات العقل المستقيم والضمير النيّر كي يعلو ببنيان هذا الهيكل وعمرانه؟

اسمحوا لنا هنا بجواب مباشر: العودة إلى الكتاب المقدّس، بالنسبة إلى المؤمن المسيحي، هي واجب تدعو إليه الشريعة الطبيعيّة، وتـجذبه الشريعة الموحاة.

فلا بدّ من العودة إلى الكتاب المقدّس لأنّ العقل البشري ليس معصومًا في جهوده عن معرفة الناموس الأخلاقي وصياغته، ولأنّ الإنسان يُغرَى باستمرار لإعادة تجربة آدم وحواء لصالحه، ولاتّخاذ قرار من تلقاء نفسه بشأن ما هو خير أو شر (تكوين ٣، ٥)، ولأنّه يمكن للعاطفة أن تُزيل جزءًا من سهولة ممارسة المنطق ووضوحه وموضوعيّته، ولأنّه ليس من السهل أن يكون الإنسان في الوقت نفسه حَكَمًا وطرفًا، ولأنّ التجربة الوثنيّة ما زالت تتربّص بمُثُل الإنسان وحاجاته.

وتشكّل الأخلاق الكتابية، بواسطة الإلهام، ضمانة للأخلاق الإنسانيّة ومرآة مخلصة ودائمة لها ولقيمها، وإليها نرجع كي نقيس التوجيهات الناتجة من العقل. وَفي بعض الأحيان، تقوم الأخلاق الكتابيّة (أ) **بتصحيح** الانحرافات الناتجة من التشويش والضجيج الذي يتعرّض لهما العقل البشري (الشريعة الطبيعيّة). وفي أحيانٍ أخرى، تكتفي الشريعة الموحاة في الكتب المقدّسة، (ب) **بتأكيد** ما وجدته الشريعة الطبيعيّة من خلال الضمير أو التفكّر العقلاني أو البحث العلمي. وَفي هذه الحال، لن تساعد الأخلاق الكتابيّة الإنسان في الدفاع عن نفسه ضد نفسه فقط، بل ستوفّر له ضوءًا آمنًا يُنير الكثير من المسائل البشريّة المعقّدة التي يصعب التمييز فيها بوضوح. فيسطع ضوء الكتاب ليغذّي ضوء العقل البشري، داعمًا إيّاه في كفاءاته الطبيعيّة أصلًا، وضامنًا له الطرق الآمنة بامتياز. بالنسبة إلى اللاهوت المسيحي، وحدُه الوحي قادر على كشف المعنى النهائي للوجود وللحياة وللمصير. وهو الذي يُعطي المعنى الكامل للحياة البشريّة، ولكلّ قيمة إنسانيّة ولكلّ قاعدة أخلاقيّة. كما أنّ الأخلاق الكتابية تعمل أحيانًا (٣) **ككاشف استباقي**، حيث تُظهر قيمًا ومعايير أخلاقيّة، لا تزال في مرحلة جنينيّة بالنسبة إلى الأخلاق الشائعة. وَلن تتبلور هذه القيم في كامل نصاعتها إلّا عندما تلامس الأخلاق المسيحية السامية. نأخذ، على سبيل المثال، الدعوة إلى حب الأعداء حيث نكتشف أن العناصر في الأخلاق غير المسيحيّة لن تظهر بكامل وضوحها، إلّا عند التلاقي

مع النصّ المقدّس. وهكذا تكشف الأخلاق الكتابيّة للإنسان ملء حقيقته وكرامته التي تنطلق منها حكمًا مسيرة النزعة الإنسانويّة.

خاتمة

كنّا قد وضعنا لأنفسنا أهدافًا أربعة للإجابة عن إشكالية هذا البحث، علّنا وُفِّقنا في سعينا إلى بلوغها. وقد أوضحنا كيف أنّ الله هو مصدر القيم وأنّه قد أودعها في كيان مخلوقاته وعلى رأسها الإنسان، المخلوق على صورته ومثاله. وفسَّرنا أنّ الكتاب المقدّس هو حاملُ هذه القيم ومَـخـزَنُـها ومِرآتُـها. وبالتالي، لقد أثبتنا أنّ القيم الإنسانويّة تنبع من طبيعة الإنسان، فهي ليست مجرّد إسقاط أو موروث تربوي أخلاقي. وبطبيعة الحال، استنتجنا أنّ الوحي الإلهي يكشف ماهيّة الإنسان وقيَمَه المتأصّلة في طبيعته ودعوته الأصيلة، فهو لا يستنبط القيم من العدم. على هذا الأساس، نؤكّد أنّ ما تعمل النزعة الإنسانيّة على بلورته وتنظيمه لا يتعارض، بجوهره، مع الكنيسة التي ترى في الكتاب المقدّس شاهدًا ثابتًا على ما كُشِفَ واختُبِرَ ونُقِلَ ودُوِّن، عن الله وعن الإنسان، بضمانة الوحي والإلهام. وفي الوقت نفسه، نرى أنّ النزعة الإنسانيّة لا تستطيع فرض قيم أخلاقيّة لم تكن موجودة أصلًا. لكن ربّما تسلّط الضوء، بشكل جديد، على قيم لم يتعرّض النصّ المقدَّس بشكل مباشر، أو في سياق مختلف ومغاير.

في خضمّ هذه الاستنتاجات، نرى أنّ على اللاهوت المثابرة في حمل نِبراسَين منيرَين لمواكبة النزعة الإنسانويّة، كما لمواجهتها إن لزم الأمر. ويقوم النبراس الأوّل، عل أن يتحقّق اللاهوت ممّا تعرضه عليه النزعة الإنسانيّة المعاصرة من قيم جديدة أو مستجدّة، على ضوء الإيمان ووديعة الوحي المدوّنة في النصّ المقدّس. والثاني، أن يتابع فهم الكنيسة لما أورَثَنا إيّاه الكتاب المقدّس في ما يخصّ القيم الأخلاقيّة، وأن يستكمل مسيرة تفسيره وتأويله وتأوينه لها. وذلك، بروح متواضعة وعقل مستقيم، بدون إهمال ما تكشفُ له أضواءُ القراءات الإنسانويّة، وربّما ظلالُها أيضًا. فلعلّها تعكس، بدورها، ألوان الشريعة الطبيعيّة التي عليها فُطِرت.

مصادر ومراجع

– المجمع الفاتيكاني الثاني، «دستور عقائدي في الوحي الإلهي»
– المجمع الفاتيكاني الثاني، «قرار في التنشئة الكهنوتيّة»
– قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، رسالة جامعة في الإيمان والعقل، روما، ١٩٩٨
– الهيبي، إدغار، «التربية الأخلاقيّة وقبول الآخر، مقاربة مسيحيّة»، أبحاث ودراسات تربويّة، مجلّة محكّمة متخصّصة في الفكر التربويّ الإسلامي والمقارن، العدد الخامس، السنة الثالثة، صيف ٢٠١٧ م، ١٤٣٨ هـ، ص ١١٥–١٥٣

- Blanchard Yves-Marie, « « Toute Écriture est inspirée » (2 TM 3,16). Les problématiques de la canonisation et de l'inspiration, avec leurs enjeux respectifs », *Recherches de Science Religieuse,* 2005/4, (Tome 93), Éditions Centre Sèvres, p. 497-515.
- Hamel Edouard, « La théologie morale entre l'Écriture et la raison », *Gregorianum*, Vol. 56, N°. 2 (1975), p. 273-319.
- Hamel Edouard, « L'Écriture, âme de la théologie morale? », *Gregorianum*, 1973, Vol. 54, N°. 3 (1973), p. 417-445.
- Hamel, Hans, *Projet d'éthique planétaire, La paix mondiale par la paix entre les religions (original 1990, Traduit de l'Allemand par Joseph FEISTHAUER),* Seuil, Paris, 1991, 250 p.
- Müller Denis, « Transcendance et fragilité des valeurs. Pour une éthique universelle, pluraliste et démocratique », *Revue d'éthique et de théologie morale,* 2006/3 (N° 240), Cerf, p. 61-74.
- Pini Joseph-Thomas, « La présentation de la loi divine chez Saint Thomas d'Aquin entre la Somme contre les Gentils et la Somme de théologie », Référence numérique : *(1) Loi divine chez Saint Thomas d'Aquin entre Summa theologiae et Summa contra gentiles | Joseph-Thomas Pini - Academia.edu,* visitée le 17.02.2024, 18 p.
- Schwartz Shalom H., « Les valeurs de base de la personne : théorie, mesures et applications », *Revue française de sociologie,* 2006/4 (Vol. 47), p. 929 - 968.
- Sesboue Bernard, « La canonisation des Écritures et la reconnaissance de leur inspiration. Une approche historico-théologique », *Recherches de Science Religieuse,* 2004/1, (Tome 92), Éditions Centre Sèvres, p. 13-44.
- Simmenauer Benjamin, « Qu'est-ce qu'une valeur morale ? », *Espace éthique* – Poche, Éditions Erès, 2010, p. 121-131.
- Commission théologique internationale, *À la recherche d'une éthique universelle. Nouveau regard sur la loi naturelle*, Cerf, Paris, 2009.